فلسفة العلوم الإنسانية من التفسير الآلي إلى نظرية التعقيد

أ. قـلامين صباح
جامعة خميس مليانة
الجزائر

ملخص:

لقد عرف العلم الطبيعي تقدما باهرا بفضل اعتماده المنطق العلمي الخطي، واقتناع علمائه بأن قضية التنبؤ بالنسبة لأي ظاهرة في الكون مرهونة بتنظيم منهجي ثابت تمليه الحتمية والسببية،هذا ما جعل العلوم الإنسانية تتبناه كمنهج لا مثيل له دفعها لمواجهة عوائق عديدة في محاولة إحراز اكبر قدر من العلمية والدقة والموضوعية. إلا أن العلوم الطبيعية ومن خلال روادها توصلت بواسطة نظرية التعقيد إلى نتائج مذهلة،تبين أن الظاهرة الطبيعية ظاهرة غير ثابتة، ولا يمكن التنبؤ بها كما ألفها التصور سابقا. وبما أن الظاهرة الإنسانية هي أصلا ظاهرة ديناميكية متغيرة ومتقلبة وغير مرتقبة، ولا خطية متعددة الأشكال والأبعاد، وهي في ذلك تقترب من مواصفات الظاهرة الطبيعية الفيزيائية التي أصبحت خاضعة في تفسيراتها إلى نظرية التعقيد، هذا ما يجعلنا نعتقد أن الظاهرة الإنسانية يمكن أن تكون ظاهرة علمية، ويمكن أن يتم ضبطها ومعرفتها إذا ما استطعنا أن نوظف الأدوات الجديدة التي أتى بها هذا النموذج التصوري الجديد القائم على نظرية التعقيد.

Dans les années 1970, les scientifiques découvrent qu'il est possible de traduire mathématiquement des phénomènes dont le comportement paraît désordonné, grâce à la théorie déterministe du chaos. Selon cette théorie, tous les systèmes chaotiques déterministes possèdent des formations préférentielles (attracteurs étranges).Ces formations particulières peuvent se rencontrer dans la nature: ainsi, les images fractales calculables par les séries de Mandelbrot, les images, météorologiques, les battements du cœur constituent tous des attracteurs étranges.

Notre objectif est de démontrer que cette théorie peut s'appliquer sur les phénomènes scientifiques autant que ceux humains puisque celle-ci présente les mêmes caractères de complexité chaotique. Les phénomènes humains qui sont non linéaires, non soumis au déterminisme, imprévisibles, dynamiques, variables dans le temps et dans l'espace, nous poussent à dire qu'ils peuvent être étudiés de la même façon que les phénomènes naturels .

الكلمات المفتاحية: العلوم الإنسانية، العلوم الطبيعية، الحتمية، نظرية التعقيد، الفوضى

Sciences naturels, sciences humaines ,déterminisme, théorie du complexité, chaos.

المقدمة

لقد أدى التقدم العلمي في مجال الطبيعية إلى ظهور نظريات تحاول تفسير فوضى الظواهر الطبيعية وإخضاعها لقوانين، وقد مس هذا التحول الأسس الجوهرية للتصور العلمي، كما أدى إلى انتقال التصور العلمي والفكري من التصور الخطي الذي يؤمن بتنظيم منهجي ثابت تمليه السببية والحتمية، والذي يتسم بثبات القواعد، والقدرة على ترقب التطور المحتمل والتنبؤ بكل التحولات الممكنة، إلى تصور مغاير تماما، تمثل في المجال الديناميكي المتغير والمتعدد الأشكال والأبعاد، غالبا ما تكون تأثيراته وامتداداته غير مرتقبة وغير محددة، لتتناقض تماما مع المبادئ التي اعتاد عليها الفكر العلمي لمدة طويلة من الزمن .

والمثير للانتباه أن التصور البشري قد تأثر كثيرا بالمنطق العلمي الخطي (الكلاسيكي) إلى درجة أنه تبناه كمنهج لا مثيل له ولا بديل له فأدخله في كثير من ميادينه الفكرية والعلمية.

وعليه، فبينما كانت العلوم الإنسانية تواجه عوائق عديدة في محاولة إحراز المزيد من الموضوعية والدقة التجريبية حتى تكون في نفس المستوى من العلوم الدقيقة الأخرى، هاهي هذه العلوم نفسها من خلال روادها تتوصل إلى نتائج مذهلة ومحيرة للغاية، أدخلت الفكر العلمي كله في دوامة من الشك وإعادة النظر في قواعده وقوانينه الثابتة، فلقد تبين أن الظاهرة الطبيعية ظاهرة غير ثابتة، فهي متغيرة ومتقلبة ولا يمكن التنبؤ بها كما ألفها التصور سابقا.

وبما أن الظاهرة الإنسانية هي أصلا ظاهرة ديناميكية متغيرة ومتقلبة وغير مرتقبة، فهي ظاهرة لاخطية متعددة الأشكال والأبعاد، وهي في ذلك تقترب من مواصفات الظاهرة الطبيعية الفيزيائية، التي أصبحت خاضعة في تفسيراتها إلى نظرية الفوضى .وهذا يدفعنا إلى طرح الإشكالية التالية:

إذا كانت العلوم الطبيعية الفيزيائية بخصائصها ومناهجها وافتراضاتها تقترب من خصوصيات الظاهرة الإنسانية، فهل يمكننا أن نوظف الأدوات الجديدة التي أتى بها النموذج التصوري الجديد القائم على نظرية التعقيد في العلوم الطبيعية لفهم الظاهرة الإنسانية ؟

أي هل يصلح هذا المنظور العلمي الجديد لنظرية التعقيد لدراسة سلوك الإنسان الذي يتميز بالعشوائية والتغير والديناميكية واللاخطية ؟

أولا- ابستمولوجيا العلوم الإنسانية

1-العلوم الإنسانية:

يطلق هذا الاصطلاح على العلوم المسماة بالعلوم المعنوية،و هي تبحث في أحوال الناس وسلوكهم[1]، كما يشير مصطلح العلوم الإنسانية إلى مجموعة من العلوم التي تتخذ الإنسان كموضوع للدراسة بهدف الكشف عن أبعاده المختلفة (نفسية – اجتماعية – اقتصادية ..)، أو التي تشكل الظواهر الإنسانية مجال بحثها.

فهي تدرس الإنسان كإنسان له صفات مميزة وسمات خاصة، وهي العلوم التي تدرس الإنسان بوصفه موجودا يتميز عن الجماد والنبات والحيوان بسمات خاصة، ومن هذه العلوم: علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد والتاريخ.[2]

وتعرف بأنها تلك العلوم التي تدرك العالم على أنه ينطوي على معان، وتتكون معرفتها بتلك المعاني" وهذا يعني أن علوم الإنسان تحاول النفاذ إلى الأفكار والمشاعر والمعاني والمقاصد التي تقف وراء الواقع أو التعبيرات المختلفة وإدراكها إدراكا كميا.[3] فالعلوم الإنسانية سميت كذلك باعتبارها تمثل جنسا معرفيا خاصا تقوم خصوصيته على خصوصية موضوعه بما هو جزء من الطبيعة يتميز عن سائر الأجزاء الأخرى ويتعالى عليها.[4]

وهي حديثة العهد مقارنة مع علوم الطبيعة...فإذا كان ما يعبر عنه باستقلال العلوم عن الفلسفة قد تجسد – ما بين ق16 و18- في تأسيس العلوم الطبيعية كتعبير عن نقل الظواهر الطبيعية إلى دائرة الاهتمام العلمي وتحريرها من التصورات الميتافيزيقية، فإن الظواهر الإنسانية لم تعرف بدايتها العلمية إلا في مرحلة متأخرة (ق20/19) بعد فترة طويلة ظلت فيها موضوعا للتأمل الفلسفي...وقد ساهم هذا التأخر التاريخي، الذي حتمه منطق التطور العلمي، في جعل نشأة العلوم الإنسانية ذات طبيعة إشكالية نظرا لما ترتب عنها من قضايا نظرية ومنهجية

خصوصا في ظل تأثير النموذج الفيزيائي/التجريبي الذي تبلور في سياق تطور العلوم الطبيعية، وتجلى في مدى قدرة علوم الإنسان على استيفاء شروط علميتها

2- العلوم الطبيعية: يعرف الجرجاني العلم الطبيعي بأنه العلم الباحث عن الجسم الطبيعي من جهة ما يصح عليه من الحركة والسكون.[5] العلوم الطبيعية هي نتاج الاكتشافات التي يمكن التأكد منها عن طريق الحواس، وهي جملة النتائج الكلية الموضوعية المكتسبة بمنهج والتي تعبر عن العلاقات الثابتة بين الظواهر التي يمكن التحقق منها. وهي تهدف إلى إيجاد تفسيرات للظواهر الطبيعية ومعرفة الأسباب التي تحدثها [6]، وتعد علوم الفيزياء والكيمياء من العلوم الطبيعية، كذلك العلوم التي تدرس الكون والآثار العلوية والمعادن والنبات والحيوان. [7]

إن التمييز بين علوم الإنسان وعلوم الطبيعة يمكن بالتأكيد الدفاع عنه أولا من وجهة نظر الصعوبات الإبستمولوجية والمنهجية، ولكن، من جهة أخرى، فالعديد من هذه الصعوبات ليست مقتصرة على العلوم الإنسانية فقط، فإلى أي حد يمكن أن تكون الظواهر الإنسانية موضوع معرفة علمية تحقق للعلوم الإنسانية شرط العلمية ؟ وهل تمثل هذه الظواهر مجالا ملائما للتفسير كما تمت ممارسته في العلوم "الدقيقة"، أم أن الفهم يصبح ضروريا في مقاربتها؟ وما هو النموذج الذي يحقق العلمية المنشودة للعلوم الإنسانية ؟

3- أزمة العلوم الإنسانية

لقد وصلت العلوم الطبيعية إلى درجة من التقدم والنجاح الباهر بفضل اعتمادها على المنهج التجريبي والقوانين التي تضبط العلاقات الموجودة بين الظواهر، مما جعل مناهجها تقدم مثالا جديرا بالاحتذاء والتطبيق في المجال الإنساني، رغبة منها في تحقيق اكبر قدر من العلمية والدقة والموضوعية.فقد اعتبر النموذج الطبيعي (المنهج التجريبي) سلطة مرجعية للعلوم الإنسانية والاجتماعية. كما حققت هذه الأخيرة تقدم كبير يضاف إلى الرصيد العلمي للقرن العشرين، لكن لم يتكون بعد نسق متكامل من القوانين التفسيرية في أي مجال من مجالات

العلوم الإنسانية يماثل من حيث القوة المنطقية أنساق القوانين التفسيرية في أقل فروع العلوم الطبيعية خطوة من التقدم.[8]

ويترتب عن ذلك تحديد قيمة المعرفة التي تنتجها العلوم الإنسانية إذا ما قورنت بما تنتجه العلوم التجريبية وهذا هو أساس ما يعرف بمشكلة العلوم الإنسانية، وهي من أهم المسائل التي أثارت اهتمام الباحثين، حتى قيل إن وجود علوم طبيعية على أساس منطقي مقنن ومنهجي راسخ، يمثل بالنسبة لباحثي العلوم الإنسانية التحدي الذي ينبغي عليهم مواجهته للوصول بعلومهم إلى مستوى يقارب مستوى العلوم الطبيعية." [9]

ونظرا لخصوصية الظاهرة الإنسانية وتعقدها فقد واجه منهج التفسير المعتمد في العلوم الطبيعية عدة عوائق في محاولته لدراستها والإحاطة بها. ومن أهم هذه العوائق هو وجود أسباب باطنية وذاتية ترجع إلى محتوى الوعي، تكون هي المحدد الأساسي لبعض الظواهر الإنسانية إضافة إلى العوامل الموضوعية. وإذا كان منهج التفسير يسمح برصد المحددات الموضوعية، فإن المحددات والعوامل الذاتية تحتاج إلى منهج آخر مغاير هو الذي يسمى بمنهج الفهم أو المنهج التفهمي. وهذا ما يتجلى في عبارة ويلهالم دلتاي Wilhelm Dilthey (1838-1911) الشهيرة " إننا نفسر الطبيعة، لكننا نفهم ظواهر الروح ".

فإذا كان الموضوع في العلوم الطبيعية ماديا ومعزولا عن الذات، فإن الموضوع في العلوم الإنسانية مرتبط بالذات وجزء لا يتجزأ منها. ولهذا يبدو أنه لا يمكن تفسير الظواهر النفسية وإجراء التجربة عليها، بل لا بد من تفهمها عن طريق منهج الفهم الذي يعتمد الحدس والاستبطان والتأويل

ولقد حصر **دلتاي** العجز النسبي عن تحقيق التقدم في العلوم الإنسانية في مشكلتين، الأولى أن العلوم الإنسانية مازال يعوزها تصور واضح ومتفق عليه عن أهدافها ومناهجها المشتركة والعلاقات بينها، إذا ما قورنت بما هو سائد في العلوم الطبيعية، والمشكلة الثانية هي

أن العلوم الطبيعية تزداد منزلتها ومكانتها نموا واطرادا بحيث ترسخ في الرأي العام مثلا أعلى للمعرفة لا يتلاءم مع التقدم في العلوم الإنسانية [10].

ونلاحظ أن "**هانز جورج غادامير**" Hans Georg Gadamar (1900-2002) يشارك "ويلهالم دلتاي" الذي تعهد بتأسيس العلوم الإنسانية على نحو أكثر نسقية ومنهجية وبوصفها شديدة التباين منهاجا وتطبيقا عن العلوم الطبيعية، هذا من حيث كونها نسبية متغيرة وفقا للأنماط والإيقاعات التاريخية للسياقات الاجتماعية أو الثقافية ، حسب اصطلاحه المفضل.[11]

لقد تنامى من بعد "دلتاي" الوعي بهذا التأخر النسبي للعلوم الإنسانية مقارنة بتقدم العلوم الطبيعية، أو على ضوئه، وكثر الحديث فيه حتى أصبح أمرا مألوفا .فقد شهد منتصف القرن التاسع عشر الميلاد الرسمي لكثير من فروع العلوم الإنسانية على نفس أسس الابستيمولوجيا العلمية آنذاك بمستوى طموحاتها، وطبيعة مسلماتها وتأثير استجاباتها للحدود والظروف المعرفية... هذه الأسس الابستيمولوجية يلخصها ويبلورها مبدأ الحتمية الميكانيكية Determinism [12]، التي تفيد عمومية القوانين الطبيعية وثبوتها وإطرادها فلا تخلف ولا مصادفة. [13] إذ يعني أن نظام الكون ثابت شامل مطرد كل ظاهرة من ظواهره مقيدة بشروط تلزم حدوثها اضطرارا ، أي خاضعة لقانون محدد وهذا هو ما يجعله كونا منتظما cosmos وليس هاوية من الفوضى والعماء، أي كاوس chaos [14].

فالحتمية الميكانيكية نظاما شاملا لا استثناء فيه ولا احتمال، كل حدث لابد وأن يحدث بالضرورة ويستحيل ألا يحدث، أو أن يحدث سواه ،[15] إنها تجعل له نظاما كليا، لا يشذ عنه في الزمان ولا في المكان شيء فكل ما فيه ضروري ذو علاقات ضرورية ثابتة، تجعل كل حدث من أحداثه مشروطا بما يتقدمه أو يصاحبه من أحداث أخرى ، حتى أن المدلول المادي لهذا المبدأ هو " جملة الشروط التي تعين حدوث ظاهرة من الظواهر "[16].

على هذا النحو تترتب أحداث الكون وظواهره بصورة تجعلها متعلقة ومرتبطة ببعضها ارتباطا ضروريا لا خروج عنه، فليس في الطبيعة جواز ولا إمكان ولا طفرة ولا معجزة ولا

طوارئ ، بل كل ما فيها ضروري، ولما كانت الضرورة استحالة النقيض، كانت الحتمية العلمية تعني أن كل ما يحدث لابد و أن يحدث، ويستحيل أن يحدث سواه. [17]

إن ما يحدث في أي لحظة وفي كل لحظة يحدث تبعا لقوانين ثابتة كمحصلة حتمية لوضع الأشياء السابقة عليها، وهذا الوضع بدوره محصلة حتمية حددتها ظروف أسبق وهكذا دواليك. فثمة قوانين ميكانيكية يقينية دقيقة دقة رياضية تحكم هذا الكون وتجعل أحداثه في صورة أشبه بالسلسلة المحكمة الحلقات، كل حلقة تلزم عن سابقاتها وتفضي إلى لاحقتها.

وإذا توصلنا إلى تلك القوانين وعرفنا تفاصيل حالة الكون في لحظة معينة، استطعنا أن نتنبأ يقينا بتفاصيل حالته في أية لحظة لاحقة،وهذه الحتمية لها وجه آخر وهي العلية causality التي تضفي على الطبيعة انتظامها الحتمي، فتفسر أحداث هذا الكون في تسلسل، ليغدو التفسير العلمي هو ربط الحادث اللاحق بالحادث السابق من خلال قانون[18] .

لقد اصبحت الحتمية مسلمة إبستيمولوجية قبلية لإمكانية التنبؤ، فصدق إستدلالنا على أمر المستقبل من ظروف ماضية وإتيان المستقبل خاضعا لنتائج هذا الاستدلال، ذاك هو إثبات الحتمية الذي يبدو و كأنه لا دحض له [19].

وقد صاغ العالم الفرنسي **سيمون بيير دو لابلاس** Pierre Simon de Laplace (1749-1827) - أبرز الممثلين الرسميين للحتمية العلمية في أقصى صورها - في بداية كتابه الأول أشهر صياغة للحتمية العلمية، ومؤداها أننا إذا استطعنا أن نجمع معلومات دقيقة عن كل الشروط المبدئية ،لأمكن استنباط الصورة اللاحقة للكون بكل دقة، والعقبة الوحيدة أننا لا نعلم كل الشروط المبدئية، فإذا تصورنا عقلا فائقا يعرف كل القوى التي تعمل في الطبيعة، والوضع الراهن لكل جسيم في كل لحظة، وبكل القوى التي تؤثر عليه، ويستطيع أن يشمل حركات أضخم أجسام العالم وأصغر ذراته، وقد لا يكون في استطاعة أي عقل إنساني أن يصل إلى مستواه و لكنه ممكن منطقيا، ولن يكون ثمة أي شيء غير يقيني بالنسبة له وسيبدو المستقبل أمام عينيه معلوما تماما كالماضي[20] .

وهكذا كانت الحتمية الميكانيكية بعليتها هي عقيدة العلم الكلاسيكي،موضوع العلماء وعملهم الابستيمولوجي خاصة بعد أن وضع نيوتن تفسيره الميكانيكي للكون، المتضمن أن أي شيء يحدث في أي وقت في المستقبل هو حتما متصل بما يحدث الآن، وزيادة على ذلك فإن كل شيء يحدث الآن هو مرتبط كليا بما حدث في لحظة ما في الماضي.[21] وبهذا التفسير الذي قدمه نيوتن بدا وكأنه الإحراز النهائي لمشروع التصور الحتمي وتأكد ذلك المشروع بعد أن حققت قوانين نيوتن نجاحا باهرا لعدة قرون بعد اكتشافها، وقد أظهر علم الفيزياء بوضوح كيف تستطيع قوانينه أن تحسب للمراقب حركة أي عملية فيزيائية يمكن تصورها تقريبا[22]. ولم يعد أمام الدراسات الإنسانية إلا اقتضاء مثالياته الآمنة المطمئنة.

ويرى الفيلسوف المعاصر **أشعيا برلين** Berlin Isaiah (1909–1997) – وهو من المعنيين بشتى إشكاليات الدراسات الإنسانية –إذا كان نيوتن قادرا من حيث المبدأ على تفسير كل حركة وكل مكوّن من مكونات الطبيعة الفيزيقية وفي حدود عدد صغير من القوانين ذات العمومية المطلقة، أفلن يناقض العقل الافتراض القائل أن استخدام مناهج مماثلة لن يفسر الأحداث والوقائع الاجتماعية والسيكولوجية،صحيح أننا نعرف عنها أقل كثيرا مما نعرفه عن الوقائع" الفيزيوكيميائية"، لكن هل ثمة اعتراض من حيث المبدأ على أننا يمكن أن نكتشف يوما ما قوانين قادرة على أن تعطينا تنبؤات في نفس دقة تنبؤات العلم الطبيعي؟ إذن لابد من العمل على كشف هذه القوانين بواسطة بحوث في الإنسان على قدر كاف من الحذر والخيال[23].

وهذا ما دعا إليه كل من "**بول هنري هولباخ**" Paul Holbach (1723–1789)، و"**جان لورون دولامبير**" d'Alembert Jean–Baptiste (1717–1783) و**جوليان لامتري** Julien de Lamettrie (1709–1751) والعالم الرياضي الفرنسي "**ماركيز دو كوندرسيه**" Marie Jean marquis de Condorcet (1743–1794)، حيث أكدوا إمكانية الرياضيات الاجتماعية والفيزياء الاجتماعية، وفيسيولوجيا كل شعور أو اتجاه أو نزوع في نفس دقة وجدوى أصولها في العلوم الطبيعية، وإن الميتافيزيقيين ضحية الوهم والخداع، فلا شيء في

الطبيعة غائي وكل شيء خاضع للقياس، وفي الإجابة عن الأسئلة التي تؤرقنا سيشرق علينا الفجر بنور العلم.[24] بل إن أصحاب الدراسات الإنسانية خصوصا علم النفس والاجتماع نازعهم الحلم بالظفر بمنزلة تفوق الفيزياء، وذلك عن طريق إعادة تشكيل البشر والمجتمعات.

لقد ساهم اذن المشروع الكلاسيكي في فتح الطريق أمام الدراسات الإنسانية لتلحق بمسيرة التقدم العلمي، وفتح الافاق لرؤى ابستيمولوجية جديدة ،فنجد مثلا من فلاسفة العلم في القرن التاسع عشر"**جون ستيوارت مل** "John Stuart Mill (1806-1873) الذي دعا إلى مضاعفة الجهد لتأسيس العلوم الإنسانية تماما كالعلوم الطبيعية، هذه الدعوة التي لاقت أقوى استجابة مع أوجست كونت الذي أنجز مشروعه العلمي العظيم على أساس أن المعرفة بالمجتمع تاج المعرفة العلمية.[25] كما شهد هذا القرن النشأة الناضجة لعلم الاقتصاد على يد آدم سميث ،ثم التطور الجذري له على يد **كارل ماركس**Karl Max (1818-1883)، ولعلم الاجتماع الذي نشأ على يد **أوجست كونت** Auguste Comte ، لحق به علم النفس، واستقام الجذع العلمي لعلوم السياسة ....الخ.

ثانيا- فلسفة العلوم الإنسانية في القرن 20 وعلاقتها بالفينومونولوجيا

لقد قطعت العلوم الإنسانية في القرن العشرين شوطا طويلا نحو طريق "العلم " بالمعنى الدقيق، تمكنت من خلاله من تحديد موضوعاتها وتعريف ظواهرها وصياغة مفاهيمها ومصطلحاتها، كما أثمرت الأبحاث المنجزة في حقولها المختلفة بمختلف تخصصاتها وفروعها التخصصية الدقيقة منتوجا كميا غطى جوانب هامة من حياة الأفراد والمجتمعات، فأرست مناهجها وأساليبها الإجرائية من مناهج إحصائية وقياسات عددية وتجربة ميدانية... فضلا عن الأساليب الدقيقة لتحليل وتنظيم واستخلاص ما تفيد به المعطيات.

إلا أن العلوم الإنسانية- رغم المرتبة العلمية التي وصلت إليها وغم ما أحرزته من تقدم معرفي في جميع المجالات – بقيت عاجزة عن تحقيق المنزلة التي تؤهلها للمقارنة الفعلية مع نتائج العلوم الطبيعية، هذا ما دفع بالبعض إلى محاولة تخطي هذا العجز الذي أطلق عليه اسم

أزمة العلوم الإنسانية، ولعل أبرز هذه المحاولات فينومونولوجيا **ادموند هوسرل** Edmund Hussrel (1859-1938) التي تصادر منذ البداية على استحالة شق طريق العلوم الطبيعية وإحراز ما أحرزته من تقدم.[26] فقد اعتبر هوسرل أن ازدهار العلوم الوضعية قد تجاهل الأسئلة العميقة للإنسان،لأنها أرادت أن تجعل منه موضوعا كباقي الموضوعات الطبيعية،متناسية خصوصياته باعتباره كائنا يمتلك من الوعي والحرية ما يجعله مختلفا عنها[27]. فقد كانت الفينومونولوجيا جهدا مبذولا لإزالة الهوة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، فالفينومونولوجيا تصادر على أن هذه الهوه من صميم طبائع الأمور وليست مشكلة.

كما لا يمكننا أن نغفل التطورات التي عرفتها الفينومونولوجيا بعد هوسرل، خصوصا مع "**موريس ميرلو- بونتي**" Maurice Merleau-Ponty (1908-1961) الذي يرى أن الظواهر الإنسانية وعلم النفس بالذات سوف يعتمد على الفينومونولوجيا من أجل توضيح تصوراته الأساسية، مثلما تعتمد الفيزياء على الرياضيات من أجل توضيح أفكارها الرئيسية .[28]

فقد اعترض ميرلوبونتي على نموذجية العلوم التجريبية التي تشيء الإنسان، وتموضعه وتجرده من إنسانيته، وتعمل على نسيان تجربته الذاتية التي تكون أساس وجوده، لأن المعرفة العلمية الوضعية تجاهلت أهمية تجربة الذات في العالم حين أرادت أن تجعل منها موضوعا قابلا للدراسة بنفس مناهج العلوم الطبيعية.[29] فالإنسان في نظر الفينومونولوجيون كائن يتمتع بسمة أساسية هي إضفاء المعاني، ويتشكل سلوكه في إطار وعيه[30]، بينما ينفي العلم الكلاسيكي هذا من حيث كانت الحتمية تنفي حرية الإنسان.[31]

وعليه فانه إذا كانت المعرفة العلمية قد مكنت الإنسان من التعرف على أبعاده النفسية والاجتماعية والتاريخية بعيدا عن الأوهام وذلك بتبني نموذج العلوم التجريبية، فإن هذا النموذج قد حول الإنسان إلى مجرد موضوع قابل للقياس والتكميم والتنبؤ، كأي موضوع طبيعي آخر،فقامت الفينومونولوجيا أساسا لتفادي هذه الأخطاء المنهجية التي وقعت فيها العلوم

الإنسانية بتبنيها الأعمى لمسلمات منهج العلوم الطبيعية الكلاسيكية الذي يستند الى مبدأ الحتمية،كما هو الحال عند الوضعيين من علماء الاجتماع و السلوكيين في علم النفس.[32]

نستنتج مما سبق أن العلوم الإنسانية عجزت عن بلوغ مرحلة التفسير العلمي والتقدم المعرفي بسبب السعي وراء وهم اليقين النيوتوني، والتحديد المطلق للفيزياء الكلاسيكية ورياضياتها الإقليدية ،لقد عجزت التفسيرات المطروحة في العلوم الإنسانية عن التكامل لأنها تفتقر إلى الخصائص والتقنين المنطقي الدقيق[33]، إذ ينقصها شيء من الدقة لتكون مثمرة حقا، وهذا ما يجعل السؤال المطروح: كيف يمكن مواجهة التخلف النسبي للعلوم الإنسانية، أو معوقات تقدمها ؟ يتحول إلى السؤال: هل يمكن أصلا قيام علوم إنسانية ؟، وسرعان ما تأتينا الإجابة بالنفي[34]. إذ لا وجود لمبرر منطقي يسمح برفض علمية الظاهرة الإنسانية لأنها غير دقيقة، فهناك علوم كثيرة لم تتحقق فيها هذه الخاصية ولكن لا يجادل أحد في علميتها وقدراتها المنطقية، كالجيولوجيا وعلم الطب ...وعليه فإن صفة الدقة لا يمكن نسبتها إلى كل العلوم الطبيعية، كما لا يمكن رفضها بالنسبة لكل العلوم الإنسانية.

ثالثا- خاصية التعقيد في الظاهرة الإنسانية: نلاحظ أن نوعية الظاهرة الإنسانية المختصة مرتبطة بوعي كثير التغير، والذي يجعل ظواهر العلوم الإنسانية أكثر تعقيدا من ظواهر العلوم الطبيعية وأيضا الحيوية، لنجد أنه ليس مجرد الدرجة الكمية للتعقيد في الموضوع تبريرا منطقيا كافيا ومحيط لتخلف العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية، بل وإن اللافت حقا في العقد الأخير من القرن العشرين، أن التعقيد Complexity في حد ذاته – التعقيد عموما وتعقيد الظواهر الإنسانية خصوصا– ، التعقيد بأنظمته البنائية وتفاعلاته الجدلية وعلاقاته النسقية ومتطلباته المنهجية قد أصبح موضوعا لعلم ناشئ حديث[35]، مبحث يتكاتف لتشييده علماء من تخصصات عديدة لإرساء الأطر النظرية وأساسيات الممارسات الإجرائية لهذا المبحث، أو العلم الذي سيكون بحق درة من درر الانجازات العلمية في القرن العشرين .[36]

أما إذا كانت مجرد الدرجة الكمية للتعقيد هي ببساطة معامل الارتباط القياسي لدرجة التقدم العلمي للزم عن ذلك – منطقيا أن يبذل جهدا أكثر كما – ومن قبل عدد أكبر من الباحثين كفيل تماما كي تحرز العلوم الإنسانية درجة التقدم المنشودة وتتجاوز مشكلتها، وليس هذا هو الأمر الواقع ولا المتوقع.

إن اطراد التقدم العلمي ليس مجرد تراكم كمي رأسي، بل يعني تضاعف القوى المعرفية للنظريات في متوالية منطقية، وتبعا لمبدأ الطرح المنطقي، يمكن ملاحظة أن هذا يطرح أيضا على موضوع العلم ليصبح تعقيد الموضوع بدوره مسألة متوالية منطقية، وليس مجرد دالة كمية بسيطة، وعليه فمواجهة التعقيد بدوره لابد وأن يتم على هذا الوجه ،فتغدو النسقية المنطقية هي الأسلوب القادر على الإحاطة الصورية بالموقف شديد التركيب والتعقيد، وتتبع تمثلاته ونواتجه، فالعلم– كل علم سواء طبيعي أو إنساني– يتناسب ما يحرزه من اطراد التقدم مع درجة تقنينه المنطقي ونسقيته .

ولئن كانت الفيزياء قد فاقت كل فروع العلم في درجة تقدمها ، فذلك ببساطة لأنها تفوق كل فروع العلم في درجة نسقيتها وتقنينها المنطقي في مقابل العلوم الإنسانية التي أوجزنا منطق مشكلتها في افتقاد المشروع العلمي للإحكام والتقنين المنطقي .

1– الابستيمولوجيا العلمية المعاصرة: لقد رأينا كيف كانت الابستيمولوجيا الحديثة أو الكلاسيكية يلخصها ويبلورها مبدأ الحتمية العلمية، وأنه بفضلها وفضله عرفت الدراسات الإنسانية الإخبارية كيف تتلمس طريقها العلمي ،بحيث كانت نشأة العلوم الإنسانية بعدا من أبعاد النجاح الخافق للعلم الحديث وابستيمولوجيته[37] وذلك النجاح الخفاق بأبعاده المترامية أكسب مبدأها الحتمي مكانة لا مثيل لها في عالم العلم، لكن العلم المعاصر يواصل التقدم ويسحق الحتمية ذاتها مؤكدا أنه بلغ من العمر رشدا وقادر على الاستقلال .[38]

كان العلم الحديث من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر مراهقا يشق طريق النمو والنضج فكان في حاجة إلى راع وجده في مبدأ الحتمية، لكن المبدأ أدى دوره بصفة خاصة،

لقد انتهت مرحلة النشأة بالنسبة للعلوم الإنسانية، وبصفة عامة استنفد المبدأ مقتضياته وتكثفت قصوراته، ووجب تجاوزه لاستيعاب المرحلة الأعلى من التقدم العلمي، فبعد أن تميزت معالمها، نستطيع التأكيد أن تجاوز مشكلة العلوم الإنسانية في وقتنا هذا وتخلفها النسبي إنما يرتهن باستيعاب الابستيمولوجيا الجديدة التي تفتح الطريق إلى هذا، وبالتخلص من رواسب الابستيمولوجيا الكلاسيكية ومبدأها الحتمي الذي أصبح يخلق المشاكل للعلم، ويعرقل انطلاقاته التقدمية.

إن أزمة الفيزياء الكلاسيكية التي تخلقت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي أدت إلى انقلاب، أو ثورة النسبية والكمومية ،هذه الأزمة لم تكن إلا عجز التصور الحتمي الميكانيكي عن استيعاب ظواهر وعلاقات جدت ،فقد تعاملت فيزياء نيوتن مع الكتل الماردة : العالم الأكبر البادي أمام الخبرة العادية للحواس.

ومع مطلع القرن العشرين كان العلم قد اقتحم بنجاح مظفر العالم الأصغر، عالم الذرة والإشعاع، الذي ضرب عرض الحائط بكل ما له علاقة بالحتمية، واستعصى تماما على قوانين نيوتن فلا تجرؤ على الاقتراب منه، ويستقل عنها رسميا ونهائيا بنشأة وتنامي بل تعملق نظرية الكمومية، ثم تقدمت نظرية النسبية بتصور للكون يهدم التصور الميكانيكي،و يحطم الإطار المفترض للحتمية، أو عالمها (العلية – الضرورة – اليقين – اطراد الطبيعة ...) .

وأصبحت الابستيمولوجيا المعاصرة يلخصها مبدأ اللاحتمية، فحل الترابط الإحصائي بين الأحداث محل الترابط العلي، والاتجاه المحتمل محل الاتجاه الضروري، واحتمالية الحدث محل حتميته، وأصبح التنبؤ العلمي أفضل الترجيحات بما سوف يحدث .[39]

لما اختفى المثل الأعلى للعالم الحتمي الذي يسير كما تدور الساعة المضبوطة كما تصور لابلاس Laplace ،ارتدع العلماء عن الغرور الذي أكسبتهم إياه الحتمية، وهذا التحول الجذري أدى إلى تقارب كبير في المنهج بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وإذا ما كان هذا التقارب قد بدأ أيضا بتحرك العاملين في مجال العلوم الرياضية فإن الصياغة الجديدة لعلم

الطبيعة والتي تتبلور الآن أمام أعيننا قد أظهرت أن النظم المعقدة التي تدرسها العلوم الإنسانية ليست أكثر تعقيدا من النظم الطبيعية .

لقد كانت المحاولات الأولى إحداث التقارب بين مجالي المعرفة أسيرة العلم الطبيعي التقليدي بموضوعيته وحتميته [40]، ومن ثم كان تعثرها عبر الفجوة المذكورة آنفا وبعد نظرية النسبية والكمومية الجديدة واللاتعين والميكانيكا الموجية، ونظرية الفوضى والتعقيد .... اتضح أن ظواهر الطبيعة ليست مطردة ولا متجانسة، كما كان يظن، وبعد الشوط الذي أحرزته العلوم الإنسانية لاسيما في الدراسة الوصفية اتضح أن ظواهر العلوم الإنسانية ليست مغايرة كما كان يظن أي أن الطبيعة النوعية المعقدة لموضوع الدراسة لم تعد تحول بين العلوم الإنسانية وبين الاستفادة من إمكانيات المعرفة والتقدم فيها كالمتاحة أمام العلوم الطبيعية، ولا العلاقة بين الباحث وموضوع البحث في العلوم الطبيعية بأصفى وأنقى وأبسط منها في العلوم الإنسانية، وهكذا تفتح الابستيمولوجيا العلمية المعاصرة الطريق لتحقيق درجة التقدم المنشودة في العلوم الإنسانية.

لقد أدى ظهور العلم الجديد المسمى عامة علم التعقيد و نظرية الفوضى إلى تصور علمي جديد الذي يشير إلى أن الظواهر البارزة ليست صادرة حتميا عن أسباب سابقة لها ،وإنما ناتجة عن شروط بدئية صغيرة الحجم و ضعيفة التأثير لا تقدر في البداية ولا يمكن التنبؤ بارتداداتها المستقبلي، ولكن قادرة على إحداث أكبر وأضخم الكوارث .[41]

يشمل هذا الاتجاه على تيارات فكرية يشاطرون جميعا الفكرة على أن دور الفوضى هو أصلا في ظهور التعقيد، لقد أصبح هذا العلم يشكل تصورا جديدا لا يمكن تجاهله، كما أن هذا التصور الذي يعتبر تنظيرا جديدا لتفسير ودراسة الظواهر الطبيعية خاصة الفيزيائية منها، ورغم أن هذا التصور الجديد تجريبي وفيزيائي في الأصل، إلا أنه جد قريب من حقائق الظواهر الإنسانية،و هذا ما سنحاول إبرازه من خلال بحثنا هذا .

فنظرية الفوضى تنطبق أكثر على الظواهر الإنسانية لما تمتلكه هذه الأخيرة من خصوصيات متميزة من مبادئ نظرية الفوضى، ونجاح وإثبات هذه النظرية غير الخطية على الظواهر الفيزيائية لدليل قاطع على إمكانية استعمالها في الميادين الاجتماعية لكون العلاقة الاجتماعية أصلا علاقة غير خطية.

فإذا ثبت مصداقية هذا المنهج الغير خطي على الظواهر الفيزيائية، والتي غالبا ما اعتبرت ظواهر طبيعية ثابتة وخطية، فكيف لا تقاس على الظواهر الإنسانية وهي التي تعرف بلاخطية تطورها وعدم استقامة صيرورتها ؟ ومنه يتضح لنا جليا أن في تلك الاكتشافات فوائد ومنافع كبيرة تمكننا من الاقتراب أكثر من الظاهرة الإنسانية وإمكانية ضبط وتحديد موضوع العلوم الإنسانية الذي طالما بات متنوعا ومتناثرا يتقلب ويتأرجح حسب قوة الاستدلالات وتعدد التصريحات والمساهمات الفكرية .

ومادامت العلوم الإنسانية تدرس الكائن البشري الذي يتميز بالعقل الإنساني، الذي هو ليس مجرد ذكاء اصطناعي بل انه مزود بميزات فريدة من نوعها تجعله ينفرد بخصوصيات لا يمكن التحكم فيها بصورة خطية وحتمية. فالتصور الإنساني غير مصطنع، وأي عملية تفترض اللجوء إلى نمذجة التصور والفكر يحرض في أعماق العقل ارتدادات وحساسيات من شأنها أن تنتج بصورة غير متوقعة تصرفات وسلوكات متميزة .[42]

إن العقل البشري يخضع إلى ظواهر نفسية، بعيدة لا يمكن للمنطق أن يترقبها وأن يراقبها بصفة مطلقة ومحكمة [43]. كما أن العقل البشري كعضو اجتماعي يخضع بالضرورة إلى عملية التنشئة الاجتماعية التي تحدد له القيم والقواعد السلوكية المعقدة وتنظم له الخيار بين المواقف، وأخذ القرار طوال حياته[44]. ويظهر هذا جليا في الاتصالات الشخصية التي يطغى عليها الطابع الوجداني أكثر من الطابع المنطقي، بحيث لا يمكن تصور أن الاتصال عملية شعورية ناجحة، أي تفترض التفاهم التبادل المطلق بين الأطراف المتحاورة.[45]

لقد تعود الفكر العلمي وخاصة التجريبي منه على الاستدلال والمنطق الخطي القائم على السببية والحتمية، لدرجة أن أي خروج عن هذا الإطار المنهجي يعتبر خرقا لبنود الفكر العلمي وانحرافا عن الاستقامة الموضوعية المعترف بها، وقد تأثر التصور البشري كثيرا بهذا المنطق العلمي إلى درجة انه تبناه كمنهج لا بديل له فادخله في كثير من ميادينه الفكرية والعلمية.

وبينما كان الصراع الفكري على أشده بغية تقرب التصور الإنساني المتميز بتغيره وديناميته من المنهج التجريبي كمرجع علمي ثابت، وذلك لاكتساب المزيد من الاستقامة والدقة في الاستنتاج، حدث ما لم يكن في الحسبان، لقد توصل بعض العلماء في ميادين الفيزياء والطبيعة إلى نتائج مذهلة ومحيرة للغاية، أدخلت الفكر العلمي كله في دوامة من الشك وإعادة النظر في قواعده و قوانينه الثابتة .[46]

لقد تبين من خلال الكثير من الأبحاث والدراسات المجدية أن الظاهرة الفيزيائية، أو الظاهرة الطبيعية ظاهرة غير ثابتة فهي متغيرة ومتقلبة، فبينما كانت العلوم الإنسانية تبحث كيف تتقرب من المنهج العلمي لإحراز المزيد من الموضوعية والدقة التجريبية حتى تكون في نفس المستوى من العلوم الدقيقة الأخرى، هاهي هذه العلوم نفسها من خلال روادها تعترف بالعكس وتؤكد أن الظاهرة العلمية ظاهرة متغيرة ومتحولة ولا يمكن التنبؤ بها كما ألفها التصور سابقا ، مما يجعلنا نعتقد أن الظاهرة الإنسانية هي الظاهرة الأكثر صحة علميا لكونها معترف بها على أنها متغيرة ومتقلبة وغير مرتقبة أصلا. وهذا ما جعلنا نقترب من هذا التصور العلمي الجديد لنؤكد على حقيقتين:

- الظاهرة الإنسانية هي ظاهرة علمية محضة لكونها متغيرة وغير مرتقبة وليس العكس كما أن السعي وراء الاستدلالات الخطية يضعف من حقيقتها العلمية، كما يحيد ويبعد الفكر والتصور عن حقيقة مسار تطورها، وقد جاءت الاكتشافات الأخيرة لتبين مدى الصحة العلمية التي تتميز بها الظاهرة الإنسانية.

- يمكن قياس الظاهرة الإنسانية بتقنيات جديدة تنحدر من هذا الأسلوب الجديد الذي توصل إليه الفكر العلمي من خلال التجارب والاكتشافات التي بينت أن الظواهر الفيزيائية هي في الحقيقة تخضع إلى منطق مخالف ومغاير تماما عن المنطق الخطي الذي تعود عليه سابقا

وهذا ما يجعلنا نغوص في دراسة متميزة ،لإبراز كيف انتقل التصور العلمي والفكري من تصور خطي يتسم بثبات القواعد ومن ثم القدرة على ترقب التطور المحتمل والتنبؤ بكل التحولات الممكنة، إلى تصور مغاير تماما غالبا ما اعتبر مخالفا إن لم نقل متناقضا مع المبادئ العلمية الموضوعية والتجريبية. وسيشكل هذا النسج الذي نراه ضروريا لتفهم هذا التحول في التصور العلمي والذي يعتبر الإطار النظري المرجعي لتفهم حقيقة الظاهرة الإنسانية كظاهرة علمية حقيقية، ليس لكونها خطية وسببية وإنما لكونها متغيرة وديناميكية وغير مرتقبة .

2- الظاهرة الإنسانية من التصور الآلي إلى التعقيد

إن العلم جزء من الثقافة، لكن هذه الثقافة العلمية منفصلة تماما عن الثقافة الاجتماعية، وهذا الانفصال راجع أساسا إلى كون الظاهرة إنسانية أصلا ديناميكية ومتغيرة وبالتالي غير موضوعية وهذا ما يتعارض مع الفكر العلمي المادي القائم على الاستدلال التجريبي،الذي بدوره يخضع إلى منطق خطي لا يقبل الانحراف والخطأ في استنتاجاته[47]، وهذا ما نعارضه، إن موضوع العلوم الإنسانية في الأصل موضوع علمي محض على عكس ما اعتاد العقل العلمي تصوره،ليس لكونه موضوعي أو خطي بل عكس ذلك تماما لكونه متغير وغير خطي .

علينا أن نؤكد أن حقيقة الموضوع العلمي الذي نطرحه كإطار تصوري ليس متناقضا ولا حتى بعيدا عن حقيقة الظاهرة الإنسانية كعملية ديناميكية ومتغيرة في الزمان والمكان ،بل أكثر من ذلك فنحن نحرص جد الحرص على احترام هذه الحقيقة البديهية، لكن الشيء الجديد الذي نوظفه في تصورنا هذا، هو استفادتنا من الأبحاث والمساهمات الحديثة في ميادين الفيزياء والعلوم الطبيعية بصفة عامة والتي بينت مؤخرا أن حتى الظواهر الفيزيائية هي الأخرى متغيرة وغير مرتقبة شأنها شأن الظواهر الإنسانية.

بهذه الصورة الجديدة للعلم التجريبي أثبتت التجارب ولو بصورة غير مباشرة أن الظاهرة الإنسانية هي أصلا ظاهرة علمية موضوعية يمكن ضبطها ومعرفتها إذا ما استطعنا أن نوظف الأدوات الجديدة التي أتى بها هذا النموذج التصوري الجديد القائم على نظرية الفوضى Chaos والتعقيد Complexite، مفاهيم وأبعاد أحدثت ثورة في الفكر العلمي التجريبي نفسه، وهنا يحق لنا أن نتساءل دون أي مبالغة : ألا يمكن أن نراهن ونقول أن التصور العلمي الفيزيائي هو الذي يبدو في رأينا غير موضوعي لكونه استدرج قوالب نظرية شديدة المنطق والثبات جعلته يفقد كل قدرة على التخيل الحر؟ [48].

فأصبح مع الزمن سجين هذا المنطق،على عكس التصور الإنساني الذي هو في الحقيقة أكثر موضوعية وواقعية لكونه متحرر من كل القيود والشروط القهرية التي تمليها القواعد والقوانين الرياضية والفيزيائية ،ليس لكونها خاطئة وإنما لكونها بالدرجة الأولى محدودة في الزمان والمكان تجعل العقل يصعب التخلي عنها، أو إعادة النظر فيها خاصة إذا ما تعود عليها

كما أننا نعتقد أنه من السهل محاورة وانتقاد وحتى معارضة ورفض التيارات الاديولوجية التي غالبا ما تسيطر على التصورات الإنسانية دون أن يرى العقل في ذلك إحراجا أو إخلالا بمقاييس التصور الفكري، وهذا ما لا يمكن افتراضه واستحضاره واستعراضه في العلوم الصلبة الفيزيائية، بحيث كل محاولة جريئة تؤدي بصاحب هذا السلوك الاستثنائي الخارج عن العادة والأعراف إلى شتى أنواع الانتقادات الشديدة اللهجة والعنيفة الموقف أو بكل بساطة إلى عدم النظر فيها أصلا.

وفي الآونة الأخيرة، تكاثرت علامات التقارب بين الثقافتين، بين العلوم الإنسانية والعلوم المضبوطة ولا سيما في مجال محاورة بعض الظواهر الفيزيائية التي تتميز بخصوصيات ديناميكية شبيهة بتلك التي نشاهدها ونلاحظها في الظواهر الإنسانية.

ولكن هل هذا الاقتراب التصوري ممكن ؟

لقد أدت الاهتمامات العلمية في الميادين الفيزيائية والطبيعية والتقدم الملحوظ في مناهجها وتطبيقاتها إلى التفطن إلى حقائق مجهرية ذات أدوار جوهرية في سيرورة الظواهر، ولم تكن هذه الالتفاتة مقبولة ومستعابة منذ أولى الإشارات إليها بل استغرقت فترة زمنية طويلة حتى تحقق الإجماع حول ضرورة إعطاء اهتمام أوفر وأكبر لهذه الحقائق التي تجاهلها العقل العلمي رغم تواجدها في النسق الطبيعي والإنساني.

إن من بين الأسباب التي جعلت المناهج العلمية في العلوم الإنسانية تصطدم بحائط يصعب إن لم نقل يستحيل تخطيه هو ذلك الاقتناع أن كل ما هو موضوعي قائم على استدلالات خطية وحتمية وبالتالي فكل تصور يخرج عن هذا النطاق والمجال السببي يصبح ذاتي وغير علمي.

وقد قابل هذا الرأي تصور آخر يتعارض معه جملة وتفصيلا، ينص على أن الظواهر الإنسانية موضوع لا يمكن قياسه وضبطه بحسابات دقيقة، واكتفوا بهذا الحد دون تقديم اقتراحات علمية قاطعة، فتعددت الاستفسارات والتصورات والنماذج حسب اختلاف وتنوع الانتماء الاديولوجي والفلسفي لكل طرف،فارتبط موضوع العلوم الإنسانية بالعديد من التيارات والنماذج الفكرية التي لا تعد ولا تحص بسهولة وذلك لكثرة ووفرة الاقتراحات والمساهمات

وتبقى هذه النماذج والمواضيع العلمية نسبية لكونها جد متأثرة بالفكر والتصور الإنساني للظاهرة المدروسة،فكلما كانت الاختلافات حادة كانت الصعوبة كبيرة في تحقيق الاتفاق حول تعريف مشترك وموحد. ومن جهة أخرى فإن استقراءنا للواقع يبين أن أفكار مثل اللانظام واللااستقرار، والتأرجح، .... تنتشر عبر العلوم الاجتماعية، فالمجتمعات منظومات شديدة التعقيد، تتضمن عددا كبيرا من التفرعات تتمثل في مختلف الثقافات التي تطورت في زمن قصير نسبيا في تاريخ البشرية، وهذه المنظومات حساسة جدا للتأرجحات .[49]

كما أن التوتر الاجتماعي يظهر في الفضاء الزمكاني المتواجد بين الأطراف المتداخلة، فحينما تدخل العناصر في تفاعل ينتج عن ذلك قيمة إضافية ثالثة تكون منحصرة بين العناصر

وليس بداخل العناصر. وتمثل هذه القيمة الإضافية " الثالث المشمول" وهي طاقة ثالثة تصدر من تلاقي عناصر فيما بينها، والعلاقة الاجتماعية جد قريبة من هذا التصور إن لم نقل هو نفسه، فالشيء الذي يميز هذه الخاصية في العلاقة أنها تمتلك على كثير من الميزات الجوهرية من أهمها: الاستقلالية النسبية عن حرية وإرادة العناصر ومن هنا ينتج الضبط الذاتي الخارج عن إرادة الأشخاص، أو ما يعرف حاليا بالإعادة المرجعية التي تلعب دورا بارزا في إعادة استعمال الصورة المرجعية للنسق نفسه والتي تمثل فكرة التكيف العضوي. [50]

وهذه النقطة ذات أهمية مركزية فهي تعني بكل بساطة أن تركيبة النسق مهما كانت درجة تعقيده وحجم تكوينه فهو دائما يشكل صورة طبق الأصل لحقائق مجهرية تشكل الشروط المبدئية لنمو وتطور النسق نفسه، إنها نظرية الفراكتالات.

وعليه فإن مساهمتنا تتضمن رفع الستار على بعض الحقائق الجوهرية في ضبط وتحديد موضوع العلوم الإنسانية، والتأكيد على أن الظاهرة الإنسانية ليست منحصرة في مجال فيزيائي مضبوط في الحاضر، ولا هي علاقة خطية ومستقيمة في الأفق، بل تتعدى بكثير هذا النصب والتصور لتغزو مجالا متعدد الأبعاد والأطراف في المكان والزمان.

وإن كانت هذه الفكرة تبدو لدى البعض مبهمة ومحيرة في نفس الوقت، لسبب بسيط وهو أنها تبدو إن عرضناها للكثير أنها غير بديهية، فهذا لا يجعل منها فكرة غير صحيحة أو غير ممكنة ،فنحن نعلم أنه ليس كل ما هو غير بديهي بالضرورة غير حقيقي وغير ملموس،وعليه فإن الاقتراب التصوري بين إمكانية دراسة الظاهرة الإنسانية والظاهرة الطبيعية بتطبيق نفس مبادئ وقوانين نظرية الفوضى والتعقيد هو تصور ممكن التطبيق .

قائمة المراجع:

1. د. جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني بيروت، لبنان،1982، ص101.

2. إمام عبد الفتاح إمام، **مدخل إلى الفلسفة**، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ، 1977، ص159.

3. د. علي عبد المعطي، **قضايا العلوم الإنسانية إشكالية المنهج**، ورقة العمل البحث عن منهج للعلوم الإنسانية، إشراف وتقديم د. يوسف زيدان، وزارة الثقافة بمصر .ص16.

4. محرز الحمدي، **الفكر والحياة في فلسفة العلوم الإنسانية**، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، 2010، ص11.

5. الشريف علي بن محمد الجرجاني، **التعريفات**، ط3،دار الكتب العلمية بيروت،لبنان،1988 ، ص156.

6. بشير خليفي، **الفلسفة وقضايا اللغة: قراءة في التصور التحليلي**، دار العربية للعلوم الأولى 2010، ص 119

7. أكسل فايس، **أطلس الفلسفة**، ترجمة جورج كتورة، المكتبة الشرقية، ص 183.

8. يمنى طريف الخولي، **مشكلة العلوم الإنسانية تقنينها وإمكانية حلها**، دار قباء للطبعة والنشر،القاهرة، 2002، ص 45 .

9. د. علا مصطفى أنور، **التفسير في العلوم الاجتماعية: دراسة في فلسفة العلم**، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة،1988 ، ص 41.

10. د. صلاح قنصوة ، **الموضوعية في العلوم الانسانية**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1980، ص 170 .

11. هانز جورج غادامير، **الحقيقة والمنهج: الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية**، ترجمة د.حسن ناظم وعلي حاكم صالح، مراجعة د.جورج كتورة، دار أويا، ليبيا،2007، ص331.

12. يمنى الخولي، ص 59

13. د حسين علي حسن، **مفهوم الاحتمال في فلسفة العلوم المعاصرة**، ط1، دار المعارف، القاهرة ،1994 ، ص 80 .

14. د محمد عابد الجابري، **مدخل إلى فلسفة العلوم**، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط3 ، 1994، ص 416.

15. نفس المرجع، ص 416.

16. د محمد عابد الجابري ، المرجع السابق،ص 418.

17. د. يمنى طريف الخولي ، **فلسفة العلم في القرن العشرين (الأصول-الحصاد- الآفاق المستقبلية)**، سلسلة عالم المعرفة، العدد 264 ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، 2000، ص 119 .

18. د. حسن علي حسن ،**فلسفة العلم المعاصر ومفهوم الاحتمال**، ط1، دار المعارف ، القاهرة،1994، ص65 .

19. د. يمنى طريف الخولي،**فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية**،دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة 2001، ص 58.

20. جيمس نيومان وميشيل ويلسون، **رجال عاشوا للعلم** ، ترجمة د. أحمد شكري سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،2001، ص 91 .

21. I.Newton , **Principes Mathématiques de la Philosophie Naturelle**. Traduction de la marquise de chastelet .tome 1.Albert Blanchard. Paris 1966 .p17.

22. عبد القادر بشنة ، **الابستيمولوجيا – مثال فلسفة الفيزياء النيوتونية** - ، ص1

23. Isaiah Berlin ,**four essays on liberty**, oxford 1976, p 57.

أنظر أيضا: د. يمنى طريف الخولي ،**مشكلة العلوم الانسانية: تقنينها وإمكانية حلها**، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ، 2002، ص 70-71 .

24. د.يمنى طريف الخولي، **مشكلة العلوم الإنسانية تقنينها وإمكانية حلها**، ص61.

25. د. يمنى طريف الخولي، **جون ستيوارت مل: أول من نادى بإخضاع العلوم الإنسانية للمنهج التجريبي**، دراسة منشورة بمجلة التربية، الدوحة، العدد 6، 1983 ، ص 81-82.

26. E.Husserl, **La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale** ,traduit de l'Allemandet préfacé par Gérard Granel, Gallimard, Paris 1976,p8.

27. ادموند هوسرل، **أزمة العلوم الأوروبية والفلسفة الترانساندانتالية (مدخل إلى الفينومينولوجيا)**، ترجمة اسماعيل مصدق، مراجعة جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2008 ، ص 640-641 .

28. علا مصطفى أنور، **الفينومونولوجيا عند ميرلوبونتي وارتباطها بالعلوم الإنسانية**، 1986 ، ص 16 -17 .

29. د. صلاح قنصوة، **فلسفة العلوم الاجتماعية ،هل قدمت الفينومونولوجيا جديدا للعلوم الإنسانية**، الأنجلو، القاهرة، 1987، ص 185.

30. د. محمد ابراهيم عبد النبي، **النظرية الاجتماعية والوعي الاجتماعي**، دار الثقافة العربية ، القاهرة، 1988، ص 111.

31. د . يمنى طريف الخولي، **الحرية الإنسانية والعلم: مشكلة فلسفية**، دار الثقافة الجديدة ،القاهرة 1990 ، ص 62 .

32. إ.هوسرل، **محاضرات براغ،السيكولوجيا وأزمة العلم الأوربي**، ص 472-473.

33. د. يمنى طريف الخولي، **مشكلة العلوم الإنسانية، تقنينها وإمكانية حلها** ، ص82 .

34. د. توفيق الطويل،**إشكالية العلوم الاجتماعية أنها ليست علوما**، أوراق ندوة: إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة ،1984، ص2 .

35. د. بدوي عبد الفتاح محمد، **فلسفة العلوم** ،دار قباء ،القاهرة،2001،ص 353.

36. يمنى طريف الخولي، **مشكلة العلوم الإنسانية، تقنينها وإمكانية حلها**، ص 103.

37. هانز جورج غادامير،**الحقيقة والمنهج**، ص 332.

38. عبد الفتاح مصطفى غنيمة، **موضوعات من فلسفة العلوم المعاصرة**، دار الفنون العلمية،1993 ، ص 202-203.

39. ارنست زيبروسكي، **مخاطر كوكبنا المضطرب**، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، المجلس الأعلى للثقافة،2003 ، ص 65.

40. د. أسامة أمين الخولي، **في مناهج البحث العلمي**، وحدة أم تنوع ، ص 9 .

41. جيمس غليك ، **نظرية الفوضى وعلم اللامتوقع**، ص 35.

42. J.G. Ganascia, «**l'âme machine**», **les enjeux de l'intelligence artificielle**, Ed seuil , paris 1990, p 19 .

43. J.G. Ganascia , ibid p 209 .

44. J.G. Ganascia , ibid p 206

45. J.H. Beavin, P. Watzlawich . D. Djackson, une logique de la communication, p 47.

46. ارنست زيبروسكي،**مخاطر كوكبنا المضطرب**، ص 393.

47. موريس أنجرس، **منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية**، ترجمة بوزيد صحراوي، كمال بوشرف، مراجعة مصطفى ماضي، دار القصبة للنشر،الجزائر، 2004، ص 58-59.

48. جون بروكمان، **الثقافة الثالثة: ما بعد الثورة العلمية**، ترجمة طاهر شاهين، ديمة شاهين، الهيئة العامة السورية للكتاب دمشق،2009، ص 388.

49. اليا بريغوجين، **نظام ينتج عن الشواش**، ترجمة طاهر بديع شاهين، دمشق 2008، ص 402.

50. د. بويحياوي، الخواء الاجتماعي، 2008، ص 46.